الفصل الثاني

الاسم والإطلاق

مناقشة وترجيح

إن ترجيح وجه على وجه في مسألة تشتمل على عدة وجوه أو تحتمل أكثر من تفسير يحتاج لأسس، تدعم الرأي الراجح وتقويه كما يرتكز على مناقشة موضوعية للآراء الأخرى يظهر من ثناياها ضعف وجهات النظر المعارضة للرأي الأقوى؛ وكذلك تفتقر عملية الترجيح إلى كثير من الحجج الناصعة التي تجعل الخصم مستريحًا لقبول الأمر الراجح ومستعدًّا للتنازل عن المرجوح، وطبقًا لهذه البديهيات العلمية فإننا نعرض لكلمة صوفي ومن أين اشتقت؟ ثم نمحص الآراء المذكورة في هذا الصدد ونبلوها؛ لنستنتج منها ما هو أقوى سندًا وأبهر حجة.

هل تصح التسمية أو لا ؟

الغالبية العظمى من الصوفية ؛ على أن رجال الطريق مازالت عليهم سمات البشرية المخلوقية وعلائق الآدمية. ومازالوا صالحين للتسمية بمعنى أنهم لم يتخلصوا من الموضوعات التي تتجانس مع غيرها فتتسمى و لم يتحللوا نهائيًّا من الأمور التي يمكن إطلاق الأسماء عليها و لم تنقطع جميع الوشائج بينهم وبين المخلوقية؛ حتى تتعذر التسمية مهما وصلوا في أحوالهم إلى قمة المذاقات الفنائية أو الشهودية.

وبعض أنصار التسمية يرى أن النفس بما تتصف به من مقامات وأحوال هي موضوع التسمية لبقية بقيت عليهم من نفوسهم ولولا ذلك لما لاقت بهم الأسماء ولا تعلقت بهم[1] على حد تعبير أبي بكر الشبلي الذي يرأس هذا الفريق.

---

(١) السراج: اللمع: ٢٩٦: ٤٠-٤١.

والبعض الآخر يذهب إلى أنهم متفاوتون في معانيهم وأحوالهم وعلومهم فلا ينتسبون إلى علم دون علم؛ لنبوغهم في جميع العلوم كما لا ينتسبون إلى حال أو مقام لأنهم لم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم[1]، وهو محل جميع الأحوال السنية والأخلاق الشريفة. وفي تنقل دائم من حال إلى حال مستأهلين للزيادة فلهذا ما أضيف إليهم حال دون حال ولا أضفتهم إلى علم دون علم[2] اللهم إلا الإضافة إلى ظاهر اللبسة[3]، والتسمية باعتبارها هذا تكون لهم اسمًا مجملاً عامًا مخبرًا عن جميع العلوم والأعمال والأخلاق والأحوال الشريفة المحمودة[4].

وإلى هذا الرأي يذهب أبو الحسن القناد وأبو نصر السراج. وعلى كل فالتسمية جائزة الوقوع سواء ارتبطت ببضع الصفات النفسية أو بظاهر الرسم حسب مذهب كل من الفريقين.

ويغالى بعض أرباب الطريق فيرى أن الصوفي خف وشف ؛ حتى صار أثيري المقام والحالز وأضحى كبريتًا أحمر يعز نسبته إلى شيء من الأكوان لانعدام الروابط والمجانسة بينه وبين عالم المسميات والأسماء.

وأيضا لما كانت التسمية من الرسوم وولي الله لا يسم نفسه بسيماه فلا يكون له اسم يتسمى به[5] حسبما جاء في أقوال أحمد بن الحواري (٢٣٠هـ) ويقول أبو بكر الزقاق (٣٥٩هـ): كل أحد ينتسب إلا نسب الفقراء فإنهم

---

(١) السراج: اللمع: ٢٩٦: ٤٠-٤١.
(٢) نفسه.
(٣) نفسه.
(٤) نفسه.
(٥) طبقات السلمي: ٢٥

ينتسبون إلى الله تعالى. وكل حسب أو نسب ينقطع إلى حسبهم ونسبهم[1] وما دام الأمر كذلك وأنهم تعروا عن الرسوم المكانية والزمانية والمادية. وانفصل نسبهم عن عالم الشهادة الذي يصحح التسمية ويحتشد بالأسماء على اختلاف اطلاقاتها من جامدة ومشتقة واتصل بعالم الغيب ومُنح الربوبية فإنهم بذلك أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق[2]، وبهذه الشفافية والعروج الدائب إلى الله والتنقل المستمر في جنبات فضله؛ تصبح الإشارة والعبارة ممنوعتين على الصوفي[3]، كما هو عند القشيري والهجويري.

والشيء الذي لا يقبل الجدل هو اليقين بأن التسمية جائزة وليس هناك من الموجودات سواء من كان أزليًّا كالحق جل جلاله أو ينتابه الفساد كبقية المخلوقات دونه ما لا يقبل التسمية. فالله سبحانه له أسماؤه المشهورة وللملائكة أسماء وأعلام صفاتية، ولعالم الملكوت أسماؤه، وللأنبياء أسماؤهم الذاتية والصفاتية.

وأطلق القرآن أسماء مشتقة لاعتبارات متعددة كالمهاجرين الذين هاجروا من مكة إلى المدينة وكالأنصار الذين آووا من هاجر إليهم. وكالربانيين والرِّبِّيين والأحبار.

وأسماء الصفات كالتائبين والعابدين والصابرين والشاكرين وغيرها وهي أكثر من الحصر هنا، ولقد سُمي من حضر بدرًا بالبدريين وأهل بدر.

وسمي جماعة بالخشوعيين؛ لأن جدهم الأعلى كان يؤم الناس فمات

---

(١) تاريخ بغداد: ج٥ : ٢٦٧.
(٢) الرسالة القشيرية: ١٣٧
(٣) كشف المحجوب ج١: ٢٣٠

بالمحراب[1]. كما تسمى بعض الأفراد لمناسبات مختلفة بأسماء مشتقة من نفس المناسبة. فسميت أسماء بنت أبي بكر بذات النطاقين لخبر الهجرة المعروف وتسمى أبوها بالصديق وتسمى الزبير بالحواري، وأسامة بالحب، وأبي عبيدة بأمين الأمة[2]، وسمي محمد بن صالحة بالسجاد[3].

وفي هذا كله ما يكفي للرد على من سما بالصوفية فوق الرسم والتسمية وبالغ في نسبتهم؛ لأن رتبة النبوة فوق الصحبة والصحبة فوق التابعين والتابعين فوق تابعيهم.

وهذه الرتب باعتراف جميع الصوفية فوق رتبة الصوفي، ومع هذا فقد أطلقت بعض الأسماء الجماعية والفردية لمناسباتها ورسومها على رتب الأنبياء ومن الأهم ومما يدحض زعم من منع التسمية أنهم اتفقوا فيما بينهم كذلك على تسمية أكابر الأولياء بالأخيار والأبدال والأوتاد والأقطاب والغوث فمن أين صحت التسمية والحال أن هؤلاء هم أرق سالكيهم وأقرب واصليهم؛ وعلاوة على هذا كله فإن الله اعتبر المعرفة بالسيما والعلامة في قوله ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

مشكلة الاشتقاق

ومع أن الغالبية يرون جواز التسمية -والحق معهم- ويطلقون لفظة الصوفي على من سلك طريق القوم فإنهم مع هذا يختلفون حول أصل الاشتقاق فيرده

---

(١) وفيات الأعيان ج١: ٢٤٣

(٢) البخاري ج٥: ٢٧: ٣٢

(٣) طبقات ابن سعد ج٥: ٤٩

الكلاباذي إلى أمور وصفات باطنية وإلى رسم ومناسبات ظاهرية.

أما الأصول الباطنة: فترجع إما إلى الصفة الحسنة، وإما إلى الصف الأول. كأنهم بارتفاع هممهم وإقبالهم على الله بقلوبهم ووقوفهم بين يديه بسرائرهم في منزلة الصف الأول، وإما إلى الصفاء وهو الأصل الذي تحزب له عدد غير قليل من أبناء الطريق ؛ نظرا لمناسبته في المعنى مع غاية التصفية والتحلية التي ينشدها السالكون عموما؛ ولذا يصرح إبراهيم الخواص (٢٩١ هـ) بأن الصوفي اشتق اسمه من الصفا فصفا ونأى[١] وينشد الفتح البستي:

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا فيه وظنوه مشتقًا من الصوف

ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفي حتى لقب

وهم في هذا الصدد يحللون تلك النسبة ويشيرون إلى طريق الصفا للقيام لله عز وجل في كل يوم ووقت بشرط الوفاء[٣] مثلما حدثنا أبو الحسين القناد وهو طريق الكسب على نهج الشرع الذي ابتدأ العبد منه وتحقق بالعبودية وصفا من كدر البشرية وعن ممازجة الأكوان والنعوت والرسوم، ووصل إلى حال الفناء والمكاشفة (صوفي لأنه صوفي) كما هو عند طاهر المقدسي وأحمد بن عطاء الأدمي (٣٠٩هـ) والهجويري ويشاركون في هذا الرأي الجيلاني[٤].

وأحيانا يذهب أنصار هذا الاشتقاق إلى أن الصفاء الذي هو أصل لكلمة صوفي مقصور على من وصل إليه بطريق الجذب لا بطريق الكسب وكل صفاء

---

(١) تاريخ بغداد ج٦: ٨

(٢) طبقات السلمي: ١٠٣

(٣) اللمع: ٤٦: ٤٧

(٤) طبقات السلمي: ٦٥ واللمع: ٢٩٦ وكشف المحجوب ج١: ٢٢٨ - ٢٣٠

بغير الوهب لا يصلح مصدرًا ومنبعًا لكلمة صوفي بل يقال لمن صافاه الكسب أو الحب : صاف أما من صافاه الحبيب فهو صوفي[1].

وبناء عليه فالصوفي اسم يطلقونه على كامل الولاية والتصفية، ومن دون ذلك لا يصح في نظر هؤلاء إطلاق اسم الصوفي عليه وإنما يسمى متصوف أو مستصوف أو زاهد أو فقير أو مريد أو سالك أو غيرها ؛ لأن هذه الأسماء ينتحلها السالك وهو في بدايات ومتوسطات الطريق، فإذا جذب أو وصل إلى النهايات مع التحقق بالتصفية والمذاقات سمي صوفيًا.

وإذا انتقلنا إلى المصادر الظاهرة للفظة صوفي نجد أن البعض يرجعها إلى الصُّفَّة نسبة إلى رجال كانوا يسكنون صفة في مسجد رسول الله ﷺ. ولا يرجعون إلى زرع ولا إلى ضرع ولا إلى تجارة. ويعملون نهارًا في رضخ النوى، ويشتغلون ليلاً بالعبادة وتعَلُّم القرآن وتلاوته. فلما تشابه رسمهم في الاجتماع والتآلف والصحبة وتشابهت أحوالهم في الغربة والهجرة والفقر والجوع ودنوا من صفات أهل الصُّفَّة نسبوا إليهم حسبما ساق ذلك السراج والكلاباذي وابن الجوزي[2].

وتحمس أبو الفرج عبد الرحمن إلى جعل اللفظة مأخوذة من العلامة صوفة التي علقتها والدة الغوث بن مر بن إد بن طابخة على رأسه حينما أنجبته وكبر ونذرته للكعبة خادمًا لها وفاء بوعدها إن ولد لها ذكر، أو أن الغوث أصابه الحرب أثناء الخدمة فوقع فقالت أمه: لقد صار ابني صوفة وسواء قالت هذا أم علقت بالفعل خرقة صوف: فإن البعض ذهب إلى نسبة الصوفية إلى هذا الجاهلي

---

(١) نفسه.

(٢) اللمع ٤٧ والتعرف ٢١ – ٢٥ وبلبيس إبليس: ١٦٢

وأولاده من بعده لمشابهتهم إياه في الانقطاع إلى الله سبحانه[1] على حد قول ابن الجوزي الذي استند في تصحيحه لهذا الرأي إلى رأي الوليد بن القاسم وإشارات الزمخشري والفيروز أبادي في كتابيهما أساس البلاغة والقاموس المحيط.؛ على أنه من المعلوم أن سر تحمس ابن الجوزي لهذا الرأي هو حبه في إرجاع التصوف إلى الجاهلية بدلاً من الإسلام ؛ لموافقة ذلك لهواه المعادي لكثير من آراء القوم.

وعد السهروردي من بين الآراء في أصل الكلمة قول القائل: إنها من الصوفة الملقاه والخرقة التي لا يرغب فيها أحد لاختيارهم طريق الذبول والانكسار والتواضع. فيقال: صوفي إلى الصوفة كما يقال: كوفي نسبة إلى الكوفة والمعنى المقصود به قريب ويلائم الاشتقاق[2]، وقريب منه أيضًا ما قيل من أنها ترجع إلى صوفانة وهي البقلة الوعثاء والقصيرة وإنما نسبوا إليها؛ لاكتفائهم بُبَيِّنَات الصحراء، أو أن الصوفي لما عطف به إلى الحق وصرف عن الخلق كان كصوفة القفا فإليها انتسب[3].

وبالغ البيروني حين أرجع الاسم إلى كلمة سوف اليونانية؛ للتشابه بين أفكار بعض الصوفية وبين النظريات الفلسفية كالقول بوحدة الوجود والاتحاد. فلما ذهب في الإسلام قوم إلى قريب من رأيهم سموا باسمهم[4].

ويؤيد هذا الرأي من المستشرقين فون هامر وسكاليجر، ومحمد لطفي جمعة

---

(١) تلبيس إبليس ١٦١ - ١٦٣

(٢) عوارف المعارف: ٦٥

(٣) تلبيس إبليس: ١٦٣

(٤) تاريخ التصوف في الإسلام: غنى ٦٧، ٦٨ نقلا عن كتاب البيروني ذكر ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرزولة.

من المصريين، ويبقى بعد هذا من الأصول الظاهرة إرجاع كلمة تصوف إلى الصوف كما هو رأي الجمهور.

المناقشة

لكي تدور المناقشة على وجه صحيح لابد أن تعتمد على ركائز قوية تسند ما يوافقها وتدحض ما يخالفها، وأرى أن تلك الركائز التي يجب التعويل عليها تقوم على أساس من اللغة التي استمد منها الصوفية مصطلحاتهم -كما سنرى قريبًا- ولا شك أن الاسم أهم تلك المصطلحات وأبرزها شيوعا.

كما تقوم تلك الأسس على الحوادث التاريخية وسيرها وحقائقها أما ركيزة اللغة فإنها لا توافق الرأي القائل بأن لفظة الصوفي من الصفة أو القائل بأنه من الصفاء أو من الصف الأول أو من الصفة أو من صوفانة أو من سوف اليونانية؛ حيث لم يرد اشتقاق الكلمة من هذه الأصول لا عن طريق السماع ولا القياس ولا عند الشواذ.

ولكن يقال في النسبة إلى هذه المصادر: صفوي وصَفَيّ وصُفْيّ وصوفاني وسُوْفِ بالسين لا بالصاد ؛ لأن العرب يترجمون الحرف S بالسين لا بالصاد.

وأيضًا فإن كلمة سوفوس وسافيس غير معروفتين في اللغة الآرامية وبالتالي فلا تكونان معروفتين في العربية والذي نقل إلى العرب هو العلم بمدلول الكلمات سوفسطيس وفيلوسوفوس والمقطوع به أن النقل كان بعد ظهور كلمة صوفي حسبما نبين، وأن كلمة سوفيا عند أربابها ويوم أن نقلت إلى العرب كانت تعني العلوم الطبيعية والطب وجميع فروع العلم بما في ذلك الحكمة الفلسفية لا الروحانية.

والأفكار التي اعتمد عليها البيروني في إرجاع التصوف إلى سُوف لم تظهر

بين الصوفية بصورة فلسفية إلا بعد ظهور كلمة صوفي بما يزيد عن خمسة قرون، ولو كان من أصل يوناني؛ لنبه عليه الصوفية ولنص المؤلفون من العرب على هذا الاشتقاق وذكروه ضمن ما ذكروا مما دخل اللغة العربية من ألفاظ أعجمية خاصة وأنهم ما كانوا يأنفون من ذكر الألفاظ المتعربة والتي نراها أحيانًا في القرآن ذاته مثل قوارير وغيرها.

وعلاوة على شواهد اللغة والتاريخ فإن اشتقاق اللفظة من غير الصوف يرجع إلى معان خاصة أو لاعتبارات معينة ككونها مأخوذة من الصفاء المرادف للفناء أو الوارد من طريق الجذب.

وإذا ركنا إلى من يقول: إن السالك صفا فصُفِيَ فهو صوفي لاصطدمنا مع من يقول: إن من وصل إلى حال الصفاء لا تناله العبارة والتسمية ومن لا يناله أي منهما كيف نسميه؟ والاعتبارات أو المعاني الخاصة تتنافى مع ما تجب أن تكون عليه التسمية من عموم وتعميم.

الترجيح

الاسم في اللغة: إما جامد وإما مشتق والجامد ما لم يؤخذ من غيره والمشتق ما أخذ من غيره بصورة تجيزها اللغة، ولا نعدل من وصفنا بالاشتقاق إلى وصفنا له بالجمود إلا عند تعذر إرجاعه لأصل من الأصول، وإذا أمكن إرجاعه أرجعناه بشرط خضوع الرجوع إلى قواعد الاشتقاق المقررة لغة وإلى السلم الذي نتبعه عائدين إلى الأصل أو منبثقين منه، وعندما نعثر على أصل لا يحتاج إلى إبدال أو تغيير أو دعوى وتعليل لا ينبغي التفريط فيه أو الانصراف عنه.

وطبقا لهذا فإن كلمة صوفي من المشتقات التي ترجع إلى كلمة صوف يقال: تصوف إذا لبس الصوف فهو صوفي أي منسوب إلى ملبسه كما نُسِب الحواريون

إلى ظواهر اللبسة (الآية ١١٢ المائدة).

ونظيره في اللغة تقمص إذا لبس القميص وحقيقة اشتقاق الكلمة من الصوف أو نسبتها إليه لم يستطع إنكارها أحد أو لم يقدر على إبطالها حتى أولئك الذين يرون أن كلمة صوفي منسوبة إلى الصفاء أو غيره.

وما دام الوضع كذلك؛ فلا غرو أن يتفق جمهور الصوفية على أنها منسوبة إلى الصوف الذي هو ظاهر اللبسة[١] حسبما قرر أبو نصر السراج، وإذا نسبناها إليه استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة[٢] حسب رأي الكلاباذي والغزالي ويعلل السهروردي اختياره لهذا الرأي بانهم لما كانوا متنقلين في الأحوال لا يقيدهم وصف ولا يحبسهم نعت تعذر تقيدهم بحال وجدانهم فنسبوا لظاهر ما يلبسون، وهو أبين في الإشارة إليهم وأدعى إلى حصر وصفهم، والإشارة إلى زيهم ستر لحالهم وغيرة على عزيز مقامهم وأقرب إلى الأدب معهم؛ كي لا تتداول الألسنة رقيق أحوالهم.

وكذلك فإن النسبة إلى الصوف تدفع المريد إلى الاقتداء بهم ابتداء وتجعله يعلم أن المأكول في التقشف والتقلل كالملبوس سواء بسواء.

والنسبة إلى غير الصوف تحتاج إلى تعليل وإليه لا تحتاج، وما لا يحتاج أولى مما يحتاج، والنسبة إليه حكم على الظاهر وإلى غيره كالصفاء حكم على الباطن والحكم على الظاهر أولى من الحكم على الباطن[٣].

---

(١) اللمع: ٤١.
(٢) التعرف: ٢٥ ومنهاج العابدين للغزالي: ٩٥: ٩٦.
(٣) عوارف المعارف: ٦٥.

ولتصحيح اللغة لتلك النسبة ولهذه العلل الخاصة بها جعلها ابن تيمية معروفة[١] وحكم ابن الجوزي بأنها الأمر المحتمل[٢] وهي الأظهر عند ابن خلدون[٣] وإليه ذهب الشيخ حسن رضوان وزكي مبارك واتفقت كلمة ماسنيون ونيكلسون ونولدكه ؛ على أن الكلمة مأخوذة من المصدر الخماسي المصوغ من صوف للدلالة على لبس الصوف[٤].

وهذا هو أقرب الأقوال إلى العقل والمنطق والموازين اللغوية[٥] كما شهد بذلك قاسم غني. وبالتالي فينبغي دحض ما عداه من الفروض؛ لعدم استنادها على اللغة أو حوادث تاريخية، والأولى قفل باب المناقشة في هذه المسألة؛ طالما أنه وجدت الحجج الصحيحة على صدق فرض ما.

وطالما أنه لا يترتب على صحة الرأي بطلان أو تناقض، وهو يخرج من الخلاف ويحسم النزاع في مسألة تعتبر شكلية إذا قيست بالحقائق الجوهرية في هذا الموضوع؛ ولأن الكلمة صارت اصطلاحية فلا مشاحة فيها، وأود أن أنبه على أمرين:

أحدهما: أنه لما ثبت صحة اشتقاق اللفظة من الجذر صوف بطل ادعاء القشيري الذي ذهب فيه أنه لا يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا

---

(١) رسالة الصوفية والفقراء.
(٢) تلبيس إبليس: ١٦٣.
(٣) مقدمة ابن خلدون: ٣٥٨
(٤) دائرة المعارف الإسلامية المجلد التاسع: ٣٢٨ والصوفية في الإسلام نيكلسون ٣، ٤ والإسلام نهج حياة: ١٢٣.
(٥) تاريخ التصوف في الإسلام: ٦٨، ٦٩.

اشتقاق والأظهر فيه كاللقب[1] كيف لا وهو الذي صَرَّف الكلمة واستخرجها وقاسها على تَقَمَّص كما بطل زعم الهجويري في قولـه: واشتقاق هذا الاسم لا يصح على مقتضى اللغة من أي معنى من المعاني[2].

ويذهب إلى أنه اسم من أسماء الأعلام مع أننا رأيناه من الأعـلام المـشتقة، ولابد وأن يكون القشيري والهجويري قد جانبهما الصواب سواء قصدا إنكـار الاشتقاق ظاهرًا أم قصدا إنكاره بحسب الباطن والمعنى والمقام والحـال وتعـذر المجانسة بينه وبين الأشياء؛ ولأننا وقفنا على صحة اشتقاقه من الأصل صوف ومن مصدره الخماسي ولا يُعدل عن الاشتقاق إلى الجمود ما وجدنا إلى الأول سبيلاً. كما أثبتنا أن الحال مهما رق وشف يمكن أن ننسب إليه ولا يوجد ذوق تتعذر النسبة إلى ثمار ذوقه.

والثاني: لسائل أن يقول: كيف نشتق اسما من الصوف؛ لنجعلـه مصطلحا على القوم مع أن جميع أفرادهم لم يتفقوا على لبسه كما سبق؟

وللإجابة على هذا نقول : إنه اشتقاق من الزي الغالب وإطـلاق باعتبـار الغالبية، ومن المعلوم أن إطلاق التسمية لا يشترط فيه مشاركة كل فرد فـرد في أصل النسبة بل ربما نطلق اسمًا على جماعة ننتزعه من نسبة لبعض أفرادها فقط ثم نُعَممْه على الجميع؛ ولذا جوز الهجويري : أن يكون في الجيش مبارزًا واحـد؛ ولكن الجميع ينسبون إليه[3]

---

(١) الرسالة: ١٣٧.

(٢) كشف المحجوب: ٢٣٠.

(٣) نفسه: ٢٤٣: ٢٤٤.

التوفيق

ولما ظهر بوضوح صحة النسبة لغة إلى الصوف وبها استمسك الكثيرون، وتردد البعض بين الفروض الأخرى ولا يمكن أن تخفى عليهم صحة الاشتقاق الراجح كان لابد من وقفة نعيد فيها تقييم هذا الاختلاف؛ لنرى هل هو من النوع الذي لا تلتقي أطرافه لاستحكام التضاد أم أنه اختلاف بسحب النظريات الخاصة التي يمكن ضمها معًا وإرجاعها إلى أصل واحد تلتقي عنده؟ فيكون بينها علاقة العموم والخصوص من وجه.

والحق أنه بأدنى تأمل يمكن أن يذوب الخلاف وأن تتجمع الفروض المتناثرة عند نظرة أساسها أن التسمية حُددت أولاً بظاهر اللبسة ثم توسع في معناها لتشمل الجوانب الباطنية، وكأن التسمية في بداية إطلاقها بالرسم لاعتبار الزي ثم نظر الصوفية فيما بعد إلى سرهم وصفاء باطنهم وأرادوا أن يكون اسمهم شاملاً لظاهرهم وباطنهم فأبرز كل صوفي صفة خاصة من الصفات الباطنية وأولاها اهتمامًا كبيرًا.

ولفت كل صاحب ذوق أو حال أو مقال نظر الآخرين لما يراه مُهمًّا في نظره فتعددت النظرات الخاصة والفروض الهامة مع عدم إنكار الأصل الأول الذي نُسبت إليه الكلمة ابتداء، وبهذا الفهم تصبح كلمة صوفي شاملة معاني الظاهر ولمعاني الباطن من الصفاء والصف الأول والصفة والصُفَّة وغيرها من الفروض الخاصة التي تطرقت بالكلمة من السمت والهيئة إلى الصفة والسر. وبهذا استقام أصل الاشتقاق الموافق للغُة وتمشت معه الفروض وقربت المآخذ.

ولنستمع إلى أبي الحسين النوري وهو يضع أيدينا على مفتاح التوفيق إذ يقول: سميت الصوفية بهذا الاسم لاشتمالها عند الخلق بظاهر العابدين وانقطاعها

إلى الحق بمراتب الواجدين[1] ويجمع أبو علي الروزباري في الاسم بين الظاهر والباطن فيصرح بأن الصوفي من لبس الصوف على الصفا[2] ولبس الصوف إشارة إلى النسبة الظاهرة، وقوله على الصفا تنبيه منه على الاهتمام بالباطن وتوسع في معنى اللفظة لتشمل ما ظهر وما استتر.

ومهما بدت الفروض السابقة في أصل الاشتقاق متغيرة في الظاهر فإن المعاني متفقة[3] واسم الصوفي صادق عليها وعلى كل معنى من معاني القرب وهو مشتمل على جميع المتفرق في هذه الأسماء[4] على حد تعبير الكلاباذي والسهروردي.

ومن هنا فلا يوجد تضاد أو تناقض بين الفروض المذكورة يمنع من اجتماعها إذا نظرنا إلى المسألة من هذه الزاوية الشاملة، والتي غابت على كثير من الباحثين فظنوا أن الصوفية اختلفوا في نسبة الكلمة اختلافًا بينًا فراح كل باحث يتعصب لفرض أو تستهويه نظرة معينة فيكرس لها جهده ويُسخِّر لها قلمه ويجمع لها شتات العلل والأسانيد ظنًّا منه أن هذا الفرض منفصل تمام الانفصال عن الفروض الأخرى مع أن الحقيقة ليست كذلك بل هي على النحو الجامع الذي ألمحنا إليه.

وللتسمية بهذا المفهوم أصل في الشرع ونظائر في بعض العبادات؛ حيث نراها تطلق على الرسم ويطلب من العابد القيام بمقتضى تلك التسمية في الظاهر؛ ولكنه لا يجمع حقيقة الشعيرة ولا ينال ثوابها عند الله إلا بالتوسع في هذا الأصل؛ ليشمل الصفات الجوانية والنفسية هي الأخرى.

---

(١) اللمع: ٢٩٦.

(٢) نفسه.

(٣) التعرف: ٢٤.

(٤) عوارف المعارف: ٦٥: ٦٦.

وذلك كالصوم فإنه في اللغة الإمساك ثم انتقل من هذا المعنى إلى المعنى الشرعي ليصبح الإمساك عن شهوتي البطن والفرج وهو أمور ظاهرة ثم انتقلت؛ لتشمل جميع الجوانب النفسية الظاهرة والباطنة والتي بها يتحقق العبد بقوله سبحانه «**الصوم لي وأنا أجزي به**» وبدونها لا يكون للصائم من صيامه إلا الجوع والعطش كما قال رسول الله.

والصلاة كذلك هي: الدعاء لغة وهي عبادة ذات أقوال وأفعال مخصوصة شرعًا، وإن أديت بشروطها الشرعية الظاهرة بدون خشية ومذلة وتواضع لا يستفيد منها المصلي ولا تقوم بدور الواعظ النفسي تنهاه عن الفحشاء والمنكر من داخله.

ولفظة المهاجر تطلق أصلاً على من هاجر من مكة إلى المدينة وفي الباطن «**لكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه**».

وهكذا كل عبادة من العبادات أو شعيرة من الشعائر لها معنى لغوي ولها معنى شرعي ظاهر ولها جوانب باطنية هي: جوهر حقيقتها وأساس التكليف فيها وبها تقع الفائدة.

ويكفينا أن نعلم أن كلمة النسك في قوله تعالى ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾[الأنعام:١٦٢] كانت في اللغة بمعنى الفضة الخالصة المصفاة من كل خلط ثم استعملت لما يتقرب به إلى الله تعالى[1] كما قال النووي: لوجه شبه بين المعنى الأصلي والمعنى المنقول إليه اللفظ نلمسه في ضرورة التصفية والإخلاص والنقاء

(١) مسلم بشرح النووي ج٢: ٤٢٧.

من الكدر.؛ وهكذا احتوى القرآن واشتملت السنة على أمور لها معان لغوية وشرعية وحقائق باطنية، واللفظية جامعة لها، كجماع كلمة التصوف وشمولها.

متى ظهرت التسمية؟

التسمية لأي علم من العلوم لا تولد فجأة ولا توجد إلا بعد أن يتخلق الهيكل العام لموضوع العلم والذي يتدرج في التكوين شيئًا فشيئًا، وقد يحدث له في أثناء تدرجه أن يتسمى بعديد من الأسماء، كل اسم يتناسب مع حلقة معينة من حلقات موضوع العلم؛ وأحيانا لا تمحى بالكلية بعض الأسماء المرحلية عند استعمال التسمية الاصطلاحية.

وبالرجوع إلى سجل الأسماء في تاريخ الحركة الروحية نجد أن اسم الصحبة كان أجل وأعظم لمن صحب رسول الله ﷺ إذ هم كما يقول السراج: أئمة الزهاد والعباد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين وغير ذلك[1] ولكون الصحبة أجل الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة[2] غيرها.

والطوسي هنا مؤلف عبقري يجمع كثرة المرادات في عبارة واحدة ؛ حيث يبين فيها أن مقامات الزهاد والصوفية وأحوالهم ترجع إلى حياة الصحابة وسلوكهم وتجاربهم النفسية ومع وجود كثرة من الأسماء إلا أن اسم الصحبة يفوقها جميعها؛ لبركة اللقاء برسول الله ويتفق معه في هذا الرأي جميع الصوفية كما ذكر القشيري والسهروردي[3] مصرحين بعلو رتبة الصحبة.

و لم تفتقر أفضليتها على ذوات الذين اتقوا بالرسول فحسب إنما كانت من

---

(١) اللمع: ٤٢.
(٢) اللمع: ٤٢.
(٣) الرسالة: ٨ وعوارف المعارف: ٦٦.

السعة في الفضل والعلو إلى درجة أن فاضت بالشرف والسمو على رتبتين بعدها هما التابعون وتابعوهم.

وقد ظلت تلك الرتب الثلاث تربو على كل ما عداها إلى يومنا هذا مع تحقق التفاوت بينها الأولى ثم الثانية ثم الثالثة، وكل درجة في الطاعة أو في العلم إنما تقتبس من شعاعات هذه الرتب ؛ ولكننا لا نستطيع نسبة الدرجات التالية لها إلى ما لا نهاية أو إضافتها إليها ؛ لأن التسلسل يُخرج التسمية عن الاختصار الذي هو شرط جوهري في أي عنوان؛ علاوة على أن الحصر للتابعين ومن تبعهم وتبع من تبعهم إلى آخره أمر يبدو صعبًا ومستحيلاً أحيانًا ولذا اقتصر في التسمية على تابعي التابعين.

ومع اعترافنا ويقيننا بأفضلية هذه الرتب وبمدى الاهتمام البالغ الذي كان يبذل لإبراز صفة الصحبة والتابعية وما بعدها خصوصًا في إسناد الروايات وربط العلماء بمن رووا عنهم من تابعي التابعين أو التابعين أو الصحابة؛ لإضفاء القوة العلمية المستمدة من حسن الصلة بأرباب المنازل والأحوال السنية من ناحية ولبيان الفضل للمتحدث عنه من ناحية أخرى.

فإننا نقرأ عن ألفاظ أخرى زاحمت لفظة التابعين وتابعيهم كالزهاد والنساك والعباد، ونسمع عن كثير من التابعين ومن والاهم ألفاظًا تحمل دلالات روحية خاصة كالقول: بأنه كان يتزهد أو كان يجتهد في العبادة أو كان ينسك أو كان يتقلل أو كان يعزل[1] وَوُصِف بعضهم بالعبارات التي تنم عن التذوق العاطفي كالخوف والحب أو عن التوحيد واليقين كالثقة والرضى، ولم تضف هذه الزيادات السلوكية أو العاطفية أو اليقينية إلا لمن لهم شدة عناية بأمر الدين من

(١) انظر طبقات ابن سعد خاصة وكتب الطبقات عامة.

أصحاب الرتبتين ممن كانوا بحق مؤسسي الحركة الروحية وباكورتها أما من عداهم فاكتفى معه بذكر التابعي أو تابع التابعي.

ولما تقادم زمان الرسالة وبعد عهد النبوة، وتوارى النور المصطفوي واختلت الآراء وتنوعت الأنحاء وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكدر شرب العلوم شوب الأهوية. وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين وغلبت الجهالات وكثف حجابها وكثرت العادات وتملكت أسبابها وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها تفردت طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق في العزيمة وقوة في الدين وزهدوا في الدنيا ومحبتها واغتنموا العزلة والوحدة واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصُفة... وأثمر لهم صالح الأعمال سني الأحوال... فظهر هذا الاسم بينهم وتسموا به فالاسم سمتهم[1].

وهذا النص يوضح لنا حال هذا الجو الذي نشأ فيه التصوف وبرزت على ساحاته جماعاته وطرقه كرد فعل لما عليه المجتمع كما يبين ظهور الاسم كسمة مميزة لهذه الطائفة عن غيرهم والذي سبق أن دللنا شرعًا على جواز التسمية لأي مناسبة من المناسبات، وكونهم تسموا بهذا الاسم لا مراء فيه ولا شك؛ ولكن الذي يحتاج إلى إيضاح هو متى ظهر هذا الاسم؟ أو متى أطلق؟ ومتى شاع؟

ولكي نجيب على هذا السؤال نضع أيدي الباحثين على اتجاهات ثلاثة:

الأول: ما يرويه محمد بن إسحاق وهو أنه قبل الإسلام قد خلت مكة في وقت من الأوقات؛ حتى كان لا يطوف بالبيت أحد، وكان يجيء من بلد بعيد رجل صوفي فيطوف بالبيت وينصرف[2] ويعلق السراج على هذه الرواية

(١) عوارف المعارف: ٦٦.
(٢) اللمع: ٤٣.

بأسلوب الشك قائلا: فإن صح ذلك؛ فإنه يدل على أنه قبل الإسلام كان يعرف هذا الاسم، وكان ينسب إليه أهل الفضل[1].

والاتجاه الثاني: يبرز ظهور الكلمة في النصف الأول من القرن الثاني الهجري ويبدو من قول الحسن البصري (١١٠هـ) رأيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانق فيكفيني ما معي[2].

وكان عاصم بن سليمان الأحول المتوفى (١٤٢هـ) قد انضم إلى القوم فترة وأُعجب بهم ثم هجرهم وقاطعهم قائلا: مازلنا نعرف الصوفية بالحمق إلا أنهم يسترون بالحديث[3]، وندع الخوض في أسباب حملته على الطائفة والتي لابد أن ترجع إلى مزاجه الشخصي وإلى نظراته هو ولنمسك بما يهمنا وهو استخدامه للفظة الصوفية قبل انتهاء النصف الأول بكثير.

ويحدد سفيان الثوري شخصية صوفية إذ يقول: لولا أبو هاشم الصوفي (١٥٠هـ) ما عرفت دقائق الرياء[4] وكذلك أطلق على جابر بن حيان لفظة الصوفي.

وأما الاتجاه الثالث: فتدل أقوال رجاله ؛ على أن الكلمة ظهرت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ونسوق في هذا الصدد إجابة عبد الواحد بن زيد (١٧٧هـ) حين سئل من الصوفية عندك؟ فقال: القائمون بعقولهم على همومهم والعاكفون عليها بقلوبهم المعتصمون بسيدهم من شر نفوسهم هم

---

(١) نفسه.
(٢) نفسه:
(٣) تلبيس إبليس: ٣٧١-٣٧٢
(٤) اللمع: ٤٢.

الصوفية[1].

وعندما خرج عبد الله بن المبارك (١٨١هـ) من بغداد يريد المصيصة صحبه الصوفية[2]، ويقول الإمام الشافعي (٢٠٤هـ): صحبت الصوفية عشر سنين فما استفدت منهم إلا هذين الحرفين، الوقت سيف وأفضل ألا تجد[3]، وإذا كان من المعلوم أنه ولد سنة (١٥٠هـ) في غزة ثم رحل إلى مكة ومكث بها من (١٥٤هـ) إلى (١٧٠هت) ثم انتقل إلى المدينة وبقي بها حتى توفي الإمام مالك (١٧٦هـ) ثم رحل إلى العراق ومكث بها حتى عام (١٩٨هـ) ثم جاء إلى مصر وبها توفي.

فإن المرجح أن تكون الفترة التي التقى بها بالصوفية في مكة؛ لأنها هي الزمن الذي كان فيه الشافعي تلميذًا وطالبًا للحقيقة في مظانها أما فترة المدينة فهي أقل من عشر. وفترات العراق ومصر كان الشافعي فيهما أستاذًا يعلم.

ومن هنا فإن الكلمة في عبارة الشافعي كانت مستعملة ما بين عام (١٥٤-١٧٠) أي في النصف الثاني وقبل المائتين كما هو رأي القشيري وابن الجوزي والسهروردي[4] على حين خلا كتاب الطبقات لابن سعد الذي ترجم لكثير من الزهاد والنساك إلى منتصف القرن الثالث الهجري من ذكر اللفظة.

وبعد أن وقفنا على هذه الاتجاهات بنصوصها يهمنا الآن أن نعطي لها قدرًا صحيحًا من المناقشة؛ لكي نتبين الحقيقة العلمية من خلالها، فنرى أن خلو كتاب

---

(١) اللمع: ٤٥.
(٢) تاريخ بغداد ج١٠: ١٥٧.
(٣) طبقات الشعراني ج١: ٤٣.
(٤) الرسالة وتلبيس إبليس: ١٦٣ وعوارف المعارف: ٦٦.

ابن سعد من استعمال اللفظة لا يرجع إلى عدم إطلاقها وإنما يعود إلى أن اهتمام ابن سعد الواسع كان منصبًّا على الصحابة ثم التابعين وتابعيهم برتبهم المشهورة وأنه شغل بحركة السياحة والتنقل والاستيطان لرجال الرتب الثلاثة، والذين ذكرهم ممن لا يدخلون تحت هذه الرتب فهم قلة و لم يعطهم ترجمة وافية، وفوق هذا فإن البحوث النظرية والدراسات التحليلية لم تنل منه كبير عناية ولا عظيم اهتمام، بقدر ما نالت منه سلاسل الرواة.

وأما الاتجاه الأول: فليس فيه ما يقطع بأن اللفظة كانت مستعملة قبل الإسلام بل الراجح أن ابن إسحاق أطلق لفظة صوفي التي هي عَلَم على الزهاد والعباد والعارفين في عصره على رجل نَسَكَ نُسُكَ الجاهلية للتشابه في النزعة، وهذا يحدث مع كثير من العلوم التي استحدثت لها مصطلحات خاصة فإن موضوعاتها تساق وتدرس تحت الأسماء المستحدثة، وكم من النظائر القيمة تذكر بمفاهيم جديدة وبلغة غير التي استعملت في عصرها!

ويؤيدنا في عدم استعمال الكلمة أنه لم يصل إلى علمنا ذكر للفظة صوفي على لسان الشعراء أو الخطباء الجاهليين، و لم يشيروا إليها من قريب أو بعيد، مع العلم بأن ألفاظ النسك والتعبد والتحنث كانت ذائعة ومشهورة.

وإذا كان الأمر كذلك وأنه من المعروف أن ابن إسحاق ولد (٨٥هـ) بالمدينة ورحل إلى الإسكندرية (١١٥هـ) ثم رحل إلى الري والكوفة والجزيرة والحيرة ثم العراق وأخيرًا توفي (١٥١هـ) فإنه يصبح من المؤكد أن اللفظة سمعت في هذا التاريخ وتلقاها ابن إسحاق أينما حل وهذا يعين كذلك أن الصواب مع أصحاب الاتجاه الثاني الذين يرون أن استعمال الكلمة بدأ مع مطلع القرن الثاني بدليل أنها تنقلت بين استعمالاتها كالاستعمال المفرد وغير المحدد عند الحسن البصري، وكالاستخدام الشخصي مثل إطلاقها على أبي هاشم، وكاستعمالها

بصيغة الجمع حسبما ورد في عبارة عاصم وتم كل ذلك قبل أن ينتصف القرن الثاني.

وفيه رد قوي على ماسنيون حين زعم أن كلمة صوفية بصيغة الجمع ظهرت عام (١٩٩هـ) في خبر فتنة قامة بالإسكندرية[١] مستندًا إلى ما قاله الكندي في الولاة والقضاة قال: وظهرت بالإسكندرية طائفة يسمون بالصوفية يأمرون بالمعروف فيما زعموا ويعارضون السلطان[٢].

وعندي أن قول الكندي هذا والسؤال الذي وُجه إلى عبد الواحد بن زيد وإجابته. وصحبة ابن المبارك للصوفية في رحلته إلى المصيصة وصحبة الشافعي لهم عشر سنوات مما يبرز ظهورها. مسبوق كل هذا باستعمال كلمة صوفي وصوفية على ألسنة من ذكرنا من رجال الاتجاه الثاني الذي حدد ظهور الكلمة في النصف الأول من القرن الثاني.

وهذا السبق لابد وأن يدحض رأي ابن الجوزي القائل: إن الاسم ظهر للقوم قبل سنة مائتين[٣] ويبطل ما ساقه السهروزدي من أنه لم يكن معروفًا إلا في المائتين[٤] من الهجرة.

وإن صح أن هؤلاء استندوا إلى عبارة القشيري الذائعة ألا وهي واشتهر هذا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية ج٩: ٣٢٨.

(٢) د./ إبراهيم بسيوني: نشأة التصوف الإسلامي: ١١٥ نقلاً عن الولاة والقضاة للكندي: ١٦٢: ١٦٣.

(٣) تلبيس إبليس: ١٦٣.

(٤) عوارف المعارف: ٦٦.

الاسم لهؤلاء الأكابر قبل المائتين من الهجرة[1].

فإنه قد فات هؤلاء المؤلفين -كما فات كثيرًا من الباحثين- أن يفرقوا بين الإطلاق والاشتهار الذي تحدث عنه القشيري، إذ ما وقع بين أيدينا من نصوص يقطع بأن الكلمة مرت بمرحلتين:

مرحلة الإطلاق: التي تتمثل في ورودها على ألسنة البصري وعاصم والثوري، ولا يخفى أن مجرد الإطلاق ضرورة؛ لذيوع فكرة ما أو مصطلح معين، والكلمة عادة تطلق وتظل محصورة في نطاق ضيق وبين أفراد معينين، وكل إطلاق له ظروفه التي تتحكم في صياغته وتداوله ثم اشتهاره، وما كان للقشيري أن يرفض مرحلة الإطلاق ولابد أن يكون قد اطلع على كتاب السراج الذي ذكر فيه.

أما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون فمحال ؛ لأنه في وقت الحسن البصري كان يعرف هذا الاسم[2] وتلك إشارة صريحة إلى مرحلة معرفة الاسم في مستهل القرن الأول قبل أن تبنى مدينة بغداد وتصير مجمعًا للعلماء، والمعرفة لا تعني سوى الإطلاق هنا.

مرحلة الذيوع والانتشار

ولما أراد أبو نصر الطوسي الحديث عن المرحلة الثانية التي عنيناها بالاشتهار استعمل كلمة (وشاع) بدلا من (عرف) ولا فرق بين شاع عند السراج وبين اشتهر عند القشيري إذ كل منهما يعبر عن مرحلة الذيوع بعد الإطلاق وإن كنا

---

(١) الرسالة في المقدمة.

(٢) اللمع: ٤٥.

نلحظ أن الذيوع تأخر قليلاً عن الإطلاق أي لم تأخذ الكلمة طريقها إلى الاشتهار سريعًا لعدة عوامل:

منها ما قلناه من شرف الرتب الثلاثة في الصحبة والتابعية وتابع التابعين، وهذا يقضي أنها تحجب ذيوع أي لفظة اصطلاحية لجماعة ينتمون إلى أي رعيل من هؤلاء الثلاثة، وإن سمحت ببزوغ نقطة ما لكنها تبقى بلا اشتهار ريثما يرحل رجال الرتبة الثالثة فيخلو الجو للأسماء الأخرى.

كما أن من بين العوامل التي أخرت الاشتهار عدم ورود الكلمة ضمن الأسماء الواردة في القرآن والسنة بنصها كما ذكرت كلمة الصابرين والمتوكلين وغيرهما وكما ذكرت كلمة ناسك وعابد وزاهد؛ ولذا صح لهذه الألفاظ أن تزاحم أسماء الرتب الثلاثة دون كلمة صوفي، وأيضًا فإن لغة التعقيد الصحيح جاءت بعد تطور الحركة الروحية وقيامها كعلم يحتاج إلى عنوان وسمة خاصة لا ينكرها الشرع حسبما ذُكر في الاستدلال سابقًا على صحة جواز التسمية لأي مناسبة.

ورغم أن الاسم أطلق أولاً ثم اشتهر قبل المائتين إلا أن بعض الأسماء عاصرته باسم (الملامتية) الذي أطلق على أتباع حمدون القصار (٢٧١هـ) شيخ هذه الطائفة ومؤسسها بخراسان[١].

كما عُرفت طائفة أخرى من الصوفية الخرسانية (بالشكفتية)[٢] نسبة إلى الشكفت الذي هو اسم الغار والكهف الذي تجمعوا فيه.

---

(١) الطبقات الكبرى للشعراني ج١: ٧٢.

(٢) عوارف المعارف: ٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية ج٩: ٣٢٨: ٣٢٩.

وفي الشام تسمى رجال القوم هناك (بالجوعية)[1] نسبة إلى الجوع؛ ولكن ما إن جاء القرن الرابع حتى صار الاسم علمًا على جميع الصوفية وانضوى تحت مفهومه جميع الأسماء الأخرى.

obeikandl.com

١) عوارف المعارف: ٦٦ ودائرة المعارف الإسلامية ج٩: ٣٢٨: ٣٢٩.